بيروت لا تنسى...

الدكتور مسعود ضاهر

قديماً قال مؤرّخ عربي: «إن من يدرس التاريخ يضيف أعماراً إلى عمره». وحديثاً انكبّ هيجل وكثيرون غيره على استخلاص «دروس التاريخ». ألسنا بحاجة إلى تذكير المتسرّعين والمهلّلين للانهيارات المحلّية والعربيّة والعالميّة والداعين إلى التصالح مع الأعداء القوميين والطبقيين بأن ذاكرة الشعوب لا تنسى، وأن تضحياتها تبقى على الدوام خميرة التجدّد والانبعاث؟

بيروت لا تنسى ذاتها، ولا تنسى تضحيات شهدائها، ولا تنسى أنها كتبت أروع صفحة في تاريخ العرب المعاصر. لكن هذه الشهادة ليست للتذكير بصمود بيروت عام ١٩٨٢ دفاعاً عن حقّها في الحرية والكرامة، وهي ليست إرضاءً للضمير وتحصيناً للذات في زمن الإحباط والهزائم المستمرّة على المستويات كافّة. إنها موقف نقديّ يرى الواقع بعينين مفتوحتين على المستقبل، ومحمّلتين بذكريات معركة جعلت من بيروت عاصمة العواصم العربية، ودوّنت صفحة من أروع صفحات البطولة والشهادة والتضحية في التاريخ الحديث.

ترى هل نفصل بين بيروت والذين صمدوا فيها كنسيج متآلف الخطوط الوطنية والقومية؟ ترى هل نستعيد تفاصيل ذكريات مدينة حوصرت طوال ثلاثة أشُهر، وقصفت بأشدّ أنواع أسلحة الدمار الإسرائيلية فتكاً، أم نستخلص العبر من صمود مدينة قاومت الحصار وانتصرت عليه وأجبرته على الرحيل مزوّداً بمئات الجنود والقتلى من أميركيين وإسرائيليين وفرنسيين وأطلسيين، وهم يجهدون الآن في طمس ذاكرتها المقاومة إرضاء للسيّد الأميركي وأعوانه؟ لا شيء أبقى من الذاكرة الحيّة. وهاكم نماذج سريعة استقيناها من المشاهدة الحيّة وفيها دروس من معركة بيروت التي لا تنسى.

يوم تحوّلت بيروت المحاصرة إلى مدينة بحجم الوطن اللبناني، لا بل بحجم الوطن العربي كله، شعر اللبنانيون والمحاصرون فيها أنهم رمز لقضيّة خالدة يجب ألاّ تموت. لذلك تفانوا في حمل قضيّتهم حتى الشهادة، واقتسموا رغيف الخبز كما اقتسموا المنزل، وقارورة الغاز، وبساط الملجأ، وزجاجة المياه، وحبّات الفاكهة وغيرها. كانوا يخرجون من ملاجئهم بعد ساعات القصف الإسرائيلي الهمجيّة أكثر عناداً وتشبّثاً بعاصمتهم الجميلة رغم آلاف الجدران وقطع الأثاث المنثورة في الشوارع. كانوا يضمّدون جراحهم بسرعة، ويتعاونون على تنظيف الشوارع. كانوا يسخرون من البطاقات التي نثرتها الطائرات الإسرائيلية مراراً تدعو فيها أهالي بيروت للخروج منها «بأمان» وفق خطّة نظّمتها القيادة الاسرائيلية لإفراغ بيروت من سكّانها المدنيين بعد أن اشتدّت الحملة العالمية لإدانة إسرائيل. آنذاك تداعت مجموعة من المثقفين المحاصرين، وبينهم رجل دين مسيحي أوروبي، فأصدرت بياناً يندّد بالبربرية الإسرائيلية. وترجم فوراً إلى الفرنسية والإنكليزية وتناقلته وكالات الأنباء العالمية.

للتذكير، كانت بيروت المحاصرة محطّ اهتمام الصحافة العالميّة، وتواجد فيها مراسلو الصحافة الأجنبية بكثرة، ورفض عدد من الدبلوماسيين الأجانب الخروج منها، وبقوا إلى جانب سكّانها المحاصرين يتقاسمون معهم مرارة الحصار ورعب القصف البربري. إنها جميلة العواصم رغم الدمار الهائل الذي لحق بكل بيت فيها. وبيروت لا تنسى من التصق بها ودافع عنها واختار مثواه الأخير بين جدرانها. وما زالت شوارعها تحنّ لأسماء الشهداء الذين مزجوا دماءهم بتراب أرصفتها حتى لا تدنّسها دبّابة إسرائيلية أو جزمة جندي صهيوني. ذاكرة التاريخ لا تنسى. ومهما طال الزمن

فبيروت وفيّة لدماء شهدائها، ولا ترضى أن تقتلع الأنصاب القليلة التي أقيمت في شوارعها على عجل تخليداً لأبطال ضحّوا بحياتهم دفاعاً عن كرامة بيروت التي شوّه وجهها لاحقاً صراع الميليشيات الطائفيّة. فهؤلاء ليسوا رجال ميليشيا، ولم يلطّخوا بالعار وجه بيروت الجميل بل حملوه في قلوبهم التي دفنوها عربون وفاء دفاعاً عن مجد عاصمة العواصم العربية. لا شيء أدعى إلى الاستغراب من معاملة الشهداء كرجال ميليشيا.

ويوم وقفت بيروت وحيدة في وجه جلّاديها كانت أصوات المحاصرين من سكّانها تشتمّ التخاذل العربي الذي بلغ حدّ التواطؤ والجريمة. وذات صباح حملت إلينا وكالات الأنباء خبر مظاهرة ضخمة في تل أبيب تندّد بالبربريّة الإسرائيلية في حصار بيروت. همس صديقي الذي لا يفارق المذياع أذنيه قائلاً بسخرية مُرَّة: «لقد أثبت الإسرائيليون أنهم ديمقراطيون أكثر من العرب». فردَّ عليه شاعر فلسطيني كبير: «كان أحرى بالعرب أن يجبروا الإسرائيليين على التظاهر احتجاجاً على كثرة قتلاهم في بيروت. ذلك هو درس الحرب الفيتنامية التي أجبرت الولايات المتحدة على الخروج مطأطأة الرأس من المستنقع الفيتنامي. أمّا مظاهرة تقوم بها «حركة السلام الآن» في إسرائيل فليست سوى تجميل للوجه الديموقراطي المزيّف الذي تطل به إسرائيل على العالم». واحتدم النقاش لفترة حول مفهوم الديموقراطية وما إذا كانت قاصرة فقط على الغرب وصنيعته إسرائيل. فأين الديموقراطيون في العالم وقد وقفوا موقف المتفرّج حيال مدينة محاصرة طوال ثلاثة أشهر وهي تقذف بأحدث آلات الدمار الغربية؟

وخرج المتحاورون بعبرة مفادها أن الحقّ بحاجة إلى قوّة تحميه، وأنه لا قيمة للشعار إذا لم يقترن بقوّة منظّمة تدافع عنه. أمّا بيروت فكانت قد أعدَّت العدّة للحصار، واستبسل المدافعون عنها لدرجة أربكت المواعيد الإسرائيلية التي كانت تتوقّع انهيار بيروت واستسلامها خلال ثلاثة أيام فقط، فتجاوز الحصار الأشهر الثلاثة، وخرج آلاف المقاتلين الفلسطينيين والسوريين مرفوعي الرؤوس بعد أن ساهموا في صنع معجزة صمود بيروت.

هل يستفيد العرب من عبرة صمود عدّة آلاف فقط من المقاتلين لمدّة ثلاثة أشهر كاملة وبمعنويات مرتفعة؟ ترى، ماذا لو توصّل العرب إلى استراتيجية قومية شاملة في وجه إسرائيل وحلفائها؟ لكن العرب الذين عجزوا في زمن الصراع بين الجبّارين هم أكثر عجزاً زمن الرأس الأميركي المتسلّط وحيداً على مقدّرات العالم.

ويوم سدّت السبل في وجه الداخلين إلى بيروت المحاصرة والخارجين منها، تهلّل وجه صديقي وهو يقرأ نبأ اختراق نخبة من خيرة المثقفين والفنّانين المصريين لطوق الحصار واختيارهم الطوعيّ للصمود مع سكّان بيروت وسط الدمار وشظف العيش. كانت بينهم النجمة السينمائية الكبيرة، والكاتبة المسرحية، والمخرج السينمائي، والصحافي، والناقد. كانت فرحتنا بهم لا توصف. تذكّرنا، بمرارة، بعض فنّانينا ومثقّفينا الذين كتبوا ذكريات الحصار من بعيد، وأطلّوا على شاشات التلفزة بوجوه مستعارة من مجد لم يشاركوا في صنعه. مهما يكن من أمر، فالعبرة لا تنسى، ومجد بيروت باقٍ لأبنائها الأوفياء لتاريخها البطولي.

قالت لي صديقة مصرية من أعضاء الوفد: «لم أشعر بلذّة الحياة يوماً كما أشعر بوجودي الآن وسط شوارع بيروت المحاصرة». كان صديقي المخرج يلتقط الصور الحيّة ويبتسم. لم يشارك في النقاشات الحادّة اليومية بل اقتصر حديثه على جملة واحدة: «هذه العدسة هي ذاكرة بيروت التي لا تموت». ردّت الكاتبة المسرحية: «الكاميرا هي الذاكرة لكن الكلمة المؤثرة هي الحياة نفسها». من قال إن شهادة الكاميرا محايدة أو باردة أحياناً؟ لقد شاهدت بأمّ عيني عشرات المصريين في بيت الفنّانة الكبيرة في القاهرة يذرفون دموع الغضب وهم يتابعون أفلام الفيديو التي التقطت أثناء حصار بيروت. كانت المشاهد مروّعة فعلاً، وصور الجُثث المحترقة والمشوّهة تدمّر الأعصاب. إنها الذاكرة التي لا تنسى الهمجية الإسرائيلية التي تتكرّر كل يوم على الأرض العربية. لكن معظم العرب غافلون عنها أو متغافلون عمداً، فمأساة بيروت لعام ١٩٨٢ تتكرّر يومياً في الأراضي المحتلّة وسط صمت عربي مطبق، واستجداء «الحل العادل» عبر السيِّد الأميركي، الخصم والحكم معاً.

الآن، وفي نهاية عقد على صمود بيروت تضجّ في الآذان أصوات مطربين مصريين من الدرجات الدنيا وقد أمّوا بيروت لجمع حفنة من الدولارات يغدقها عليهم حديثو نعمة وأثرياء حرب. أمّا شرفاء بيروت فيبحثون عن لقمة العيش المرّ، وعن دواء لمريض، ومأوى لمقعد، وسند لجدار مهدّم. إنهم يشوّهون عمداً ذاكرة بيروت وصمودها الرائع. إنهم يقتلون بيروت بإلباسها ثوبها المخمليّ الليليّ القديم كمدينة حانات بدل مدينة صمود وتحدّ لغزو إسرائيلي متوقّع في كل لحظة.

ويوم أمسكت جحافل القوات الإسرائيلية بخناق بيروت، أمسكت أيضاً بالقرار السياسي اللبناني. وبرز إلى الواجهة زعيم ميليشياوي طامح للوصول إلى السدّة الأولى متوسِّلاً الحراب الإسرائيلية من جهة، والشكل الديموقراطي عبر برلمان مطواع طلب إليه الموافقة على الأمر الواقع ففعل. واستكمالاً للديكور، بثّ التلفزيون اللبناني جلسة الانتخاب بعد أن توافد إليها النواب لإكمال النصاب بالترغيب والترهيب. قال لي صديق، والغصّة ملء فيه، «ترى، هل كان صمود بيروت وتدميرها مقدّمة لهذه المأساة الفظيعة التي يفرض فيها العدوّ الصهيوني رئيساً للبنان؟ أجابه صديق آخر: «إنه زمن الهزيمة المرّة. لكنّني شديد الخوف على بيروت نفسها. فالمسألة ليست مسألة انتخاب رئيس بل تغليب لتيّار سياسي ذي

وجه طائفي واضح على البلد بكامله. وهذه السياسة ستقود إلى مجازر دموية لا تنتهي إذا طبّق الفريق الحاكم سياسة التشفّي والانتقام من صمود بيروت وباقي المناطق اللبنانية، وهي بالتحديد الاستراتيجية الإسرائيلية لتدمير لبنان عبر الصراع الدائم بين طوائفه».

أيام قليلة أعقبت ذلك الحديث، فإذا بالرئيس المنتخب يقتل، وإذا بمجازر صبرا وشاتيلا ترتكب في وضح أيام ثلاثة بلياليها. مرّة أخرى تدامج الدم اللبناني بالدم الفلسطيني، وتدافع المراسلون الأجانب والعرب والمحليون لتغطية أنباء المجزرة المروّعة التي سُمّيت بجريمة العصر. وتشكّلت في لندن وفي طوكيو محكمتان دوليتان لإدانة الجريمة الإسرائيلية البشعة ونشرت وثائق جلساتها بالانكليزية واليابانية، وترجمت إلى جميع اللغات الحيّة في العالم. لقد تعرّف العالم بأسره على صمود بيروت من خلال حملة الإبادة التي قامت بها إسرائيل وأعوانها ضد مخيّمات صبرا وشاتيلا، وضد كل حيّ من أحياء بيروت. وما زال آلاف المفقودين من اللبنانيين والفلسطينيين مجهولي المصير حتى يومنا هذا. فهل ينسى الأهل أبناءهم؟ وهل تنسى بيروت الثكلى خناجر الجلّادين الإسرائيليين وأعوانهم من اللبنانيين بعد أن دخلت مجازر صبرا وشاتيلا ذاكرة التاريخ العالمي كأبشع المجازر التي ارتكبت في الثمانينات من القرن العشرين؟

ملحق الحصار

يوم ملأت البوارج الأميركية والأطلسية مياه الشواطىء اللبنانية بدت على صديقي العزيز كآبة لا توصف ونحن نطلّ عليها من جوار فندق الكارلتون. قال لي بمرارة: «ترى هل نعيش لنرى هذه الشواطىء مطهَّرة من دنس تلك الأرتال السود من البوارج العسكرية العدوّة»؟ لم يكن صديقي ينتظر جواباً لا أملكه أصلاً، لكنه تنهّد بمرارة وقال: «عجيب أمر حلفائنا السوفيات! ألا يشكّل وجود هذه البوارج تهديداً لأمنهم القومي؟ هل يقبلون بتحويل لبنان إلى قاعدة أميركية في خاصرة حليفتهم الاستراتيجية في المنطقة أي سوريا!؟» أسابيع قليلة انقضت وإذا بدويّ هائل يهزّ بيروت، ثم يتبعه دويّ آخر لا يقلّ عنه شدّة. وما هي إلاّ لحظات قليلة حتى تناقلت وكالات الأنباء أخبار تدمير مقرّ المارينز» ومقرّ القوات الفرنسية في بيروت. كان عدد القتلى والجرحى يقدّر بالمئات بحيث تحوّل ذلك اليوم إلى يوم حداد عام في الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا. وعلى الفور بدأت البوارج الأميركية والأطلسية تختفي تدريجياً عن شواطىء بيروت وتعيد لجميلة العواصم وجهها الناصع مطهّراً من دنس الجيوش المحتلّة. يومذاك تذكّرت صديقي الشاعر الفلسطيني حين قال إنه أحرى بالعرب تحويل شوارع البلد المعتدي إلى ساحة للتظاهر ضد إرسال أبنائهم إلى بيروت. فالحق بحاجة إلى قوّة تحميه على الدوام. ويشهد الجميع أن بيروت لم تقصّر في الدفاع عن حريتها وكرامتها. وحتى الآن ما زالت الأسئلة تطرح باستمرار حول هوية الذي دمّر مقرّ المارينز ومقرّ القوات الفرنسية في بيروت. ليس المطلوب معرفة هوّية تفصيليّة للفاعلين، أو إغداق الأوسمة عليهم، لكن ذاكرة بيروت لن تنساهم أبداً. فهم أبناؤها البررة، إلى أيّ تيّار سياسي انتموا، وهم المدافعون الأفذاذ عن كرامة شعبهم وحرية وطنهم. وستبقى بيروت وفيّة لهؤلاء، وقد يأتي يوم ـ أرجّح ألاّ يكون بعيداً ـ يقام فيه نصب للحرية على أنقاض مقرّ المارينز ومقر القوات الفرنسية في بيروت. بيروت لا تنسى ولن تنسى أنها صنعت معجزة الانسحاب الأميركي والأطلسي من لبنان، كما صنعت معجزة الانسحاب الإسرائيلي من أجزاء واسعة من أراضيه في السنوات القليلة التي أعقبت حصار بيروت:

عقد مضى على صمود بيروت البطولي لعام ١٩٨٢ لكنه عقد مليء بالهزائم والإحباط. رحم الله مهدي عامل حين قال: «لستَ مهزوماً ما دمت تقاوم». ألا يستدلّ من ذلك أن الهزيمة الحقيقية هي في انعدام الإرادة على المقاومة؟ أليس هذا واقع الحال عند العرب اليوم، على اختلاف دولهم وأقطارهم وأحزابهم؟ كانت بيروت في قمّة انتصارها يوم قبلت التحدّي وجابهت إسرائيل بكل ما امتلكت أيديها من عنفوان، فاسترجعت بيروت صورة صور في وجه الاسكندر، وصورة موسكو في وجه نابليون.

أمّا الآن، فما أبعد بيروت عن بيروت، وموسكو عن موسكو! إنه جيل من الهزيمة يولد باستمرار في رحم أنظمة سياسية مستلبة وضعت مصير أمّة بكاملها تحت رحمة السيد الأميركي على أمل إقناع صنيعته إسرائيل بأن تكتفي بما حقّقته من مكاسب على حساب كرامة العرب وسيادتهم وثرواتهم القومية. لكن اسرائيل لن ترضى بما دون إسرائيل الكبرى. وهي تعرف جيّداً كيف تستفيد من المتغيّرات الدولية كي تثبت وجودها الصهيوني وتتّسع في جميع الاتجاهات. فإسرائيل هي إسرائيل، ولا شيء تغيّر في أهدافها واستراتجيتها على طريق تحوّلها من إسرائيل الصغرى إلى إسرائيل الكبرى. عبثاً يحاول العرب كسب ودّ أميركا والقبول بالتصالح الذليل مع إسرائيل. عبثاً يحاولون تشويه وجه بيروت المقاومة كبديل لا غنى عنه ضد سياسة التصالح مع إسرائيل. بيروت هي الذاكرة والمستقبل. وهي لا تنسى أنها صنعت أول نصر حقيقي للعرب ضد العدوّ القومي. فهل تطمس العواصم العربية بيروت في عصر الهزائم والإحباط، أم أن بيروت قادرة على التجدّد في كل عواصم العرب؟

إنه التاريخ الذي لا يرحم، والتاريخ لا يصنعه إلاّ الأحرار، وذوو الكرامة، والمصمّمون على صنع مستقبلهم بدماء شعوبهم وتضحيات أبنائهم حتى يبنوا مجتمعاً حرّاً لشعب سعيد. تلك هي عبرة العبر من دروس بيروت لعام ١٩٨٢(*).

(*) ألقيت هذه الكلمة في مقرّ المجلس الثقافي للبنان الجنوبي بمناسبة مرور عشرة أعوام على الغزو الإسرائيلي لبيروت.